مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(رومية ١٥: ١-٧)

يا إخوة يجبُ علينا نحنُ الأقوياءَ أن نحتمِلَ وَهَنَ الضُّعفاءِ ولا نُرضِي أنفسَنا* فليُرضِ كلُّ واحدٍ منَّا قريبَهُ للخيرِ لأجلِ البُنيان* فإنَّ المسيحَ لم يُرضِ نفسَهُ ولكن كما كُتِبَ تعييراتُ معيِّريكَ وقعت عليَّ* لأنَّ كلَّ ما كُتِبَ من قبلُ إنَّما كُتِبَ لتعليمنا ليكونَ لنا الرجاءُ بالصبرِ وبتعزيةِ الكتب* وليُعطِكم إلهُ الصبرِ والتعزيةِ أن تكونوا متَّفقي الآراءِ فيما بينكم بحسَبِ المسيحِ يسوع* حتَّى إنَّكم بنفسٍ واحدةٍ وفمٍ واحدٍ تمجِّدون اللهَ أبا ربِّنا يسوعَ المسيح* من أجلِ ذلك فليتَّخذْ بعضُكم بعضاً كما اتَّخذكم المسيحُ لمجدِ الله.

القديس باسيليوس المتباله لأجل المسيح

العدد ٢٠٠٦/٣١

الأحد ٣٠ تموز

تذكار القديسين الرسل سيلا وسلوانس وكريسكس وابينيتوس وأندرونيكوس وهم من السبعين

اللحن السادس

إنجيل السَحَر السابع

في اليوم الثاني من شهر آب تُعيِّد كنيستنا المقدسة، ولا سيما في روسيا، لأبينا البار باسيليوس الذي عاش متبالهاً لأجل المسيح ولامعاً بمواهب النبوءة والعجائب في موسكو بين منتصف القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر. وُلد القديس سنة ١٤٦٤ في بلدة إيلخوف القريبة من موسكو لأبوين بسيطي الحال أوصيا به إلى اسكافي يعلّمه الصنعة، منذ صباه. بدا الصبي جاداً في عمله، على وداعة وطاعة، وبدا عليه صغيراً حب الاختلاء إلى الله في الصلاة.

أولى بوادر النعمة الإلهية عليه أتت وهو في السادسة عشرة من عمره. حدث هذا عندما أتى تاجر موسكوبي إلى رب عمل باسيليوس يوصيه بعمل مجموعة من الأحذية الفاخرة فانتقده القديس دون أن يتجاوز حد الاحترام. إثر إلحاح الاسكافي، بُعَيْدَ مغادرة التاجر المشغل، أجاب الصبي متسائلاً عن جدوى وضع طلبية تكفي لسنوات من إنسان سوف يموت في الغد. تحققت نبوءة القديس في وقتها فشعر أن ساعة انسلاخه عن العالم حانت، فترك محل عمله وأرض أهله إلى موسكو ليبدأ مسلكه المبارك.

في عجقة المدينة الكبرى ساح القديس باسيليوس متبالهاً، في مسلك لعله وجد فيه خلوته المنشودة في الله والمناعة تجاه أي مجد أرضي. تجدر الإشارة هنا إلى أن التباله لأجل المسيح كان نمطاً نسكياً ناهضاً في روسيا تلك الأيام، وقد أولد قديسين عديدين. كان يمضي نهاره في الطرقات والساحات العامة، شبه عارٍ، صامتاً صمت نساك القفار، وليله مصلّياً عند بوابات الكنائس. في غربته المطلقة عن الناس والعالم واهتماماته، لم ينقطع القديس البتة عن المحزونين والمظلومين والمرضى، مقتفياً آثارهم، حاملاً برحمة فائقة أوجاعهم. من هؤلاء نزلاء سجن كان مخصصاً لمدمني الخمر بات يزورهم باستمرار معزياً بالرحمة الصادقة، حاثاً إياهم على التوبة.

لعل كل تصرفات القديس، الغريبة في ظاهرها كانت تتضح نبوية. فهو مثلاً كان يرشق جدران بعض المنازل بالحجارة، ويقترب ليقبّل جدران بيوت أخرى. ولدى سؤاله عن

الإنـجيل

(متى ٩:٢٧-٣٥)

فـي ذلك الزمانِ فيما يسوعُ مـجـتـازٌ تـبـعـهُ أعميانِ يَصيحانِ ويقولانِ ارحمنـا يا ابنَ داوُد* فلمَّا دخل الـبـيـتَ دنـا إلـيـهِ الأعميانِ فقال لهما يسوعُ هـل تـؤمـنـانِ أنّي أقدِرُ أن أفعلَ ذلـك. فقالا لهُ نعـم يـا ربُّ* حـيـنـئـذٍ لـمس أعينَـهما قائلاً كإيمانِكُما فليكُنْ لكما. فـانـفـتـحـت أعـيـنُـهـمـا. فـانـتَـهَـرهـمـا يسوعُ قائلاً أنظُرا لا يَعلَمْ أحدٌ* فلمَّا خرجا شَهَراهُ فـي تـلك الأرض كـلّـهـا* وبعد خروجهما قدَّموا إليهِ أخرَسَ بهِ شيطانٌ* فلمَّا أُخرِجَ الشيـطـانُ تـكـلَّـمَ الأخرسُ* فتعجَّبَ الجموعُ قـائـلـيـن لـم يَـظْـهَـرْ قـطُّ مِثْلُ هـذا في إسـرائـيـل* أمَّا الفرّيسيون فقالوا إنَّهُ برئيسِ الشياطينِ يُخرجُ الشيـاطينَ* وكـانَ يسوعُ يطوفُ المُدنَ كلَّها والقرى يعلِّمُ في مجامِعِهِم ويكرزُ ببشارةِ الملكوتِ ويَشفي كلَّ مَرَضٍ وكلَّ ضُعفٍ في الشعب.

تـأمل

لاحظ عزم الأعميين

هذا التصرف مرة أجاب أن البيوت التي يرجم جدرانها سكانها أتقياء أفـاضـل، وهـو يـرجـم الشـيـاطـين المتربصة خارجها كي لا تقوى على الـدخـول. أمـا الـبـيـوت الـتـي يـقـبّـل زواياها فهي لأناس خطأة فاسقين، وهو يلثم جدرانها إكراماً لملائكة الله المحرومة من دخولها بسبب آثام سكانها. في حادثة أخرى أرسل له القيصر مرة بعض المال، فذهب لتوه يعطيه لتاجر في السوق، كان قد فقد كـل مـالـه، ولـم يـكـن يـقـوى عـلـى الاستجداء لإطعام عائلته.

سنة ١٥٢١، وبينما كانت جيوش التتار الغازية بقيادة محمد حيراي قـد بـلـغت مشارف مـوسـكـو، كـان القديس يصلّي بدموع حارة من أجل خـلاص وطـنـه وشـعـبـه أمـام بـوابـة كاتدرائية رقاد الكلية القداسة. أثناء صلاتـه سُمع في الكاتدرائية دوي رهيب وارتفع منها شهب نار، وسُمع صوت العذراء مريم من أيقونة قازان وهـي تـقـول إنـهـا سوف تـتـخـلّـى عن مـوسـكـو بسبب آثـام سـكـانـهـا. زاد القـديس إذاك مـن صـلاتـه ودمـوعـه فكفّت الـرؤيـا الـمـهـيـبـة. في الوقت عينه، وبينما كان القائد التتاري يحرق ضواحي المدينة، ظهرت أمامه جحافل من الجيوش أرعبته فانكفأ إلى خلف الحدود الروسية.

القيصر إيفان الرابع، الملقب بـالـرهـيب، كـان يكن للقديس مودة واحـترامـاً بـاديـن، بـالـرغـم مـن أن الـقـديس مـا كـان يـداهـنـه ولا يـهـاب سطوته عند اللزوم. مثالاً على ذلك أنه دنا من القيصر مرة بعد القداس الإلـهـي لـيـوبـخـه عـلى شرود ذهـنـه، أثـنـاء الـخـدمـة الإلـهـيـة، في مشروع بناء قصره الجديد بدلاً من أن يكون مهموماً بخلاص نفسه.

سيرة القديس بـاسيليوس تحفظ له الكثير من الآيات وهو بعد في هذا الـعـالـم. مـنـهـا أنـه شوهـد في إحدى الليالي من العام ١٥٤٧ يبكي بمرارة تـفـوق حـد الاحـتـمـال الـبـشـري، أمـام بوابة كنيسة ارتفاع الصليب الكريم، في المكان نفسه الذي اندلع منه بعد أيـام حريق اجـتـاح موسكو بـرمـتـهـا. هذا وكـان قد روى كثيرون، قبل هذه الـحـادثـة، أنـهم رأوا بـأم الـعـين الـبـار بـاسيليوس ظاهراً في السماء فوق مدينة نوفغورود يرش الماء من يديه على بيوتها مطفئاً حريقاً كاد يجتاحها.

سنوات نسكه الإثنتين والسبعين، بما فيها لحظات رقاده كانت تجلياً مستمراً لمجد الله. ففي الثاني من آب سنة ١٥٥٢، وبعدما حط به المرض، شعَّ وجه القديس أمام أعين القيصر وعائلته الذين كانوا قد هرعوا إليه، ورقد بفرح الأبرار الواثقين. جثمان الـبـار حـمـلـه الـقـيـصـر وأبـنـاؤه عـلـى الأكـف، ورائـحـة الـطـيـب تـلازمـه، إلـى قـبـر شُيِّدت عـلـيـه فـيـمـا بـعـد كـنـيـسـة للـكـلـيـة الـقـداسـة. سنـة ١٥٨٨، وبـعـد سـجـل زاخـر بـالـعـجـائـب عـلـى قـبـر باسيليوس، أعلنت الكنيسة الروسية قداسته رسمياً وقد تم تسجيل حوالي ١٢٠ حـالـة شـفـاء مـؤكـدة أثـنـاء الاحتفال.

المـديـنـة والـهـيكل في كتاب حزقيال

تشير الآيات الأولى من كتاب حزقيال (١:١-٤) إلى أنّ النبي كان من الكهنة الذين حلّوا في بلاد بابل مـع الـجـلاء الأول، أي قـبـل سـقـوط أورشليم وخراب هيكلها، العام ٥٨٧ ق.م.، بـردح مـن الـزمـن لا نـسـتـطـيـع تـحـديـده بـدقّـة. والـمـعـروف أنّ الملك الـبـابـلـيّ نـبـوخـذنـصّـر شـرع يـقـوم بغزواته الأولى في أرض فلسطين في

الواضح من خلال صراخهما وتوسّلهما. لم يكتفيا بالاقتراب منه بل صرخا ولم يطلبا سوى الرحمة. «ارحمنا يا ابن داود»! قالا «يا ابن داود» لأن هذا الإسم كان مكرّماً لديهما. هكذا كان الأنبياء يكرمون الملوك بإسنادهم لهم هذا اللقب.

بعد أن قادهما إلى البيت سألهما ثانية «أتؤمنان أني قادر أن أفعل هذا»؟ لقد سعى في مواضع كثيرة أن يشفي بعد توسّل المرضى حتى لا يعتقد أحد أنه يقوم بالعجائب حبّاً بالمجد. وليس فقط بسبب ذلك بل وأيضاً ليُظهر أنهما يستحقان الشفاء. رب قائل إن كان يفعل إنطلاقاً من رحمته، كان عليه إذاً أن يشفي الجميع. أما أنا فأقول: الإحسان له أيضاً مسبّب وهو إيمان طالبيه. ولم يطلب فقط إيمانهما بل وأيضاً أراد أن يرفع الحاضرين روحياً عن طريق لقبه «ابن داود» وأن يعلّمهم كيف يجب أن ينظروا إليه بقوله: «أتؤمنان اني قادر أن أفعل هذا»؟

أجابا «نعم يا رب» لم يسمياه ابن داود بل الرب وهو أسمى روحياً. اعترفا انه الرب. عندها وضع

العام ٥٩٨ ق.م. هذه الملاحظة، التي قد تبدو للوهلة الأولى مجرّد إشارة تاريخيّة هامشيّة، هي غاية في الأهميّة. لقد كان حزقيال أوّل نبيّ قام بمهمته من خارج الأرض المقدّسة، أي أن وحي الرب، إله إسرائيل، لم يكن مقتصراً على المساحة الجغرافية التي كانت تختصّ به، أي مملكة يهوذا، بل يشمل المعمورة كلها، وهو قادر على اختراق أرض الأعداء والظهور لأخصّائه في عقر دار الذين سَبَوْهم. ويعبّر حزقيال، في كتابه، عن هذه الحقيقة على نحو أخّاذ، إذ يبيّن كيف أنّ مجد الله يترك المدينة المقدّسة أورشليم لينتقل إلى بلاد السبي: «وصعِدَ مجدُ الربِّ من على وسَطِ المدينةِ، ووقفَ على الجبلِ الذي على شرقيِّ المدينةِ، وحملني روحٌ وجاءَ بي في الرؤيا بروحِ اللهِ إلى أرضِ الكلدانيين، إلى المسبيينَ» (١١: ٢٣–٢٤).

تتكثّف هذه الصورة انطلاقاً من واقعة دمار الهيكل، والحقّ أن حزقيال، بوصفه كاهناً، يكرّس لفكرة الهيكل أجزاء مديدة من كتابه. فخطيئة إسرائيل هي، في الأساس، خطيئة الانتقال إلى عبادة الآلهة الوثنيّة، آلهة الشعوب المجاورة. حتى أنّ هذه العبادة متأصّلة في طقوس هيكل أورشليم ذاته. فهو يعجّ بالأصنام (٨: ٥)، وشيوخ إسرائيل يبخّرون فيه للبهائم القذرة (٨:١٠)، والنساء يبكين على الإله تموز ذي الأصل الرافديّ (٨: ١٤) الذي دعاه الكنعانيّون أدون واليونانيّون أدونيس، أمّا الرجال فيسجدون للشمس (٨: ١٦). والحقّ أنّ هذه الصورة، التي يمعن كتاب حزقيال في وصفها، إنما تؤكّدها الحفريات الحديثة التي قام بها علماء الآثار في العقود المنصرمة، إذ تُظهر هذه الحفريات أنّ عبادة الآلهة الوثنيّة كانت مستشرية في كلّ بقعة من بقاع فلسطين، وذلك أسوةً بالشعوب

الكنعانيّة الأخرى المحيطة بإسرائيل، من فينيقيين وعمّونيّين وأدوميين. رغم ذلك، ما كان شيوخ الشعب يتورّعون عن اللجوء إلى الحجّة القائلة بأن السيد الرب، إله إسرائيل، لا يُمكن أن يسمح بدمار مدينته وخراب هيكلها، لأنه لا يستطيع ضمان استمراريّته كإله إلاّ عبر المحافظة على أورشليم.

بيد أنّ كتاب حزقيال يأتي ليبرهن العكس. فالله مزمع أن يدمّر هيكله بنفسه، لأنّ هذا الهيكل بات موضع فسق ومكان فجور. لذا، يغادر مجد الرب الهيكل (١٠:١٨–٢٢)، ويُعلن الرب أنّه محوّل مدينته إلى محرقة: «ويلٌ لمدينةِ الدماءِ، إنّي أنا أُعظِّمُ كُومَتَها» (٩:٢٤). ولكن كيف يستمر الله من دون مدينته وهيكله؟ لقد سبق النبيّ إرمياء فأنبأ بأن الله يجعله مدينةً حصينةً (إر ١:١٨)، كأنّ النبي بات يحلّ محلّ أورشليم، من حيث أنّه أصبح هو، لا الهيكل، مرجعاً لحضور كلمة الله والكشف عن مقاصده. هذا التماهي بين كلمة الله والنبيّ، الذي يضمن استمراريّة الحضور الإلهيّ، رغم سقوط أورشليم وهيكلها، يبلغ ذروته في نبوءة حزقيال، حيث نجد أن الله يطلب من النبيّ أن يأكل السِفْرَ الذي يحوي كلمته، رغم ما تعلنه هذه الكلمة من عقاب سينزل بالشعب الآثم التارك الرب: «فنظرتُ، فإذا بيدٍ قد مُدَّتْ إليّ، وإذا بسِفرٍ فيها... وقد كُتِبَت فيه مراثٍ ونواح وعَويل. فقالَ لي، يا ابنَ الإنسان... كُلْ هذا السِفر واذهب فكلّم بيت إسرائيل... وقال لي... أطعِمْ جوفك واملأ أحشاءك من هذا السِفر الذي أنا مناولك» (٢:١٠-٣:٣).

تحقّق خراب المدينة والهيكل، الذي تنبّأ به حزقيال، باجتياح أورشليم على يد الملك البابليّ نبوخذنصّر في

يسوع يده عليهما وقال «بحسب إيمانكما ليكن لكما». هذا ليدعم إيمانهما وليظهر انهما يشتركان في العجيبة وان كلامهما لم يكن بدافع التمليق. لم يقل لتُفتح أعينكما بل قال «حسب إيمانكما ليكن لكما». وذلك لكي يظهر الإيمان قبل شفاء العينين الجسديتين. هكذا فعل مع المخلّع. قبل أن يشفي جسده قال له: «ثق يا بني مغفورة لك خطاياك» (متى ٩:٢) كذلك فعل مع ابنة رئيس المجمع الذي بعد أن أقامها ومسكها بيدها أوصى والداها أن لا يقولا لأحد (لوقا ٨:٥٥-٥٦) وفي حادثة قائد المئة أكّد أيضاً على الإيمان (متى ٨:١٠-١٣) وأنقذ تلاميذه من العاصفة بعد أن حرّرهم من ضعف إيمانهم (متى ٨:٢٦). هنا إذاً يفعل كذلك. كان يعلم بما يجول في ذهنهما ولكنه أراد أن يُدخل في آخرين هذه الغيرة. لذلك كشف عن إيمانهما حتى يُكرز عن طريق الشفاء بالإيمان الذي كان في داخلهما.

القديس يوحنا الذهبي الفم

العام ٥٨٧. كلّ شيء يشير إلى أنّ حكاية الله مع شعبه انتهت. فالدمار قد حلّ، والهيكل باد عن بكرة أبيه، والشعب أصبح لا يرى ذاته إلاّ كومةً من العظام: «هذه العِظامُ هي كلُّ بيتِ إسرائيلَ. ها هم يقولونَ يبِسَتْ عِظامُنا وهلَكَ رجاؤنا. قد انقطعنا» (٣٧: ١١). ولكن في هذه اللحظة بالذات، وفي ظلّ غياب كل مؤشّر بشريّ يوحي بالرجاء، ينبري حزقيال، في الجزء الثاني من كتابه، إلى إعلان الخلاص الذي سيحقّقه الله، بعدما تنبّأ بالدمار، في الجزء الأول. فالله سيعيد تكوين الشعب، الذي تحوّل إلى ركام، بروحه القدوس، فيجيبه ويجعل منه جيشاً عظيماً (حز ٣٧). ولقد اختار واضعو الترتيب الليتورجيّ أن تُقرأ هذه النبوءة بالذات من كتاب حزقيال، التي يتكلّم فيها الله عن إقامة شعبه، في خدمة جناز المسيح، لما تحتوي عليه من عميق التعبير عن معنى الخلاص الذي حققه الله عبر إقامته يسوع من بين الأموات. ولكن ماذا عن المدينة والهيكل في صورة الخلاص هذه التي يُفصح عنها كتاب حزقيال؟

يُفرد حزقيال الإصحاحات الثمانية الأخيرة من كتابه (٤١-٤٨) لوصف الهيكل الجديد الذي سيقيمه الله في مدينته، بعدما تمت أيام عقابها. فمجد الرب سيرجع إلى الهيكل من جديد (٤٣: ١-٥)، ومن الهيكل تنبثق ينابيع تروّي الأرض بأسرها (٤٧)، ما يذكّر بالصورة الفردوسيّة القديمة. من الملاحظ أنّ حزقيال في هذه الإصحاحات يُغرق في وصف الطريقة التي ينبغي أن تُتمّ فيها عبادة الهيكل، حتى إنّ قارئه قد يصاب بالملل لكثرة التفاصيل. ولكنّ هذا الإمعان يجب أن يُفهم في ضوء ما كان يُرتكب في الهيكل من انحرافات العبادة الوثنيّة، ما حدا بالنبيّ إلى الإطالة والتوقّف عند التفاصيل. والجدير بالذكر أنّه لا يتوقّف كثيراً عند وصف المدينة.

فالأهمّ، في رأيه، هو الهيكل الذي يتوسّطها ويقرّر ماهيّتها، أي عبادة الله. ويتأكّد هذا الانطباع في الآيات الأخيرة من الكتاب التي يقدّم فيها النبيّ خلاصته: «واسم المدينة من ذلك اليوم يهوه» (٤٨: ٣٥). جوهر المدينة الجديدة، إذاً، هو حضور الله فيها عبر هيكله، حتى أنّ اسمها يتغيّر، ليعبّر عن هذا الحضور. الأسماء غير مهمّة في ذاتها، وكذلك المواقع. فالأمكنة مهمّة على قدر ما تُفصح عن حضور الله. ولقد تلقّف العهد الجديد هذا الدرس النبويّ الذي يعبّر عنه كتاب حزقيال أيّما تعبير، حين جعل إنجيل يوحنا، مثلاً، من جسد يسوع الهيكل الجديد الذي يُنقَض ويقام في ثلاثة أيام. فيسوع ليس فقط النبيّ الأعظم الذي صار إيّاه كلمة الله: «في البدء كان الكلمة» (يو ١:١)، بل هو أيضاً الهيكل الجديد، المكان الجديد الذي يُعبد فيه الله ويتحقّق فيه حضوره. فليس من قبيل المصادفة أنّ الرسول بولس يستخدم للكنيسة، جماعة الله، صورة جسد المسيح. إنّ هذه الصور التي ألفناها، والآتية إلينا من كتب العهد الجديد، إنّما هي متأصّلة في المنطق النبويّ الذي عبّر عنه الأنبياء، بمن فيهم حزقيال، لمّا رأى أورشليم تتحوّل إلى هيكل، فيسكنها مجد الله من أقصاها إلى أقصاها.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb